

لماذا يكره بخلاء الجاحظ الشعراء ويحذرونهم

عبدالفتاح كيليطو يعيد قراءة كلاسيكيات الأدب العربي بعيني الجاحظ



يزخر الأدب العربي القديم بآثار خالدة ومؤسسة في الثقافة العربية تبقى العودة إليها ضرورة للكتاب والباحثين والقراء لفهم نشأة الثقافة العربية وتطورها. فالحاجة للعودة إلى كلاسيكيات الأدب ليست من باب المتعة فحسب ولا هي حنين مفرغ إلى الماضي وإنما هي اكتشاف لأسباب التطور الحضاري الذي بلغه العرب سابقا واكتشاف لركائز تلك الحضارة وسبل إحياء تراثها الإنساني الهام.

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

تعدد المحاولات اليوم لفهم النسق الذي تشكلت فيه النصوص الكلاسيكية العربية والتساؤل عن الاعتبارات التي تجعل منها اليوم نصوصا كلاسيكية، وعمّا إذا كانت لها خطوط نسب مع ما أنتجه الأدب العربي بعدها، وعمّا إذا كانت هناك حاجة اليوم للعودة إلى تلك النصوص التي نعرف أن كتابها قد الفوها لمخاطبي معاصريهم، ولكنها بطريقة ما لا تزال تخاطبنا إلى اليوم.

وفي هذا الصدد اختارت مؤسسة عبدالرحيم بوعبيد المغربية مؤخرا استضافة الكاتب والمفكر المغربي عبدالفتاح كيليطو، ليلقي محاضرة حول تجربة الجاحظ، وذلك نظرا إلى ما أحدثته كتبه من تحولات عميقة شكلا ومضمونا في مسار الفكر العربي.

قراءة متجددة

الجاحظ كان كاتباً ساخراً ومتفكراً لكنه لم يكن سعيداً

وقد احتلت لغة الدواوين والوسط الحضري لغة البوادي، وفي هذا الوسط بات الشاعر مجرد متسول والشعر مجرد وسيلة للكسب لا تستطيع ابتكار لاجلها أن بخلاء مقتنعون بمذهبهم ويكتبون ضد الشعر والشعراء، وبالنسبة إلى التناقض الذي يبني عليه الجاحظ كتابته فإنه من فرط ما اعتنى بالتضاد صار متناقضا في جسده، إذ في نهاية حياته أصيب بالفالج، نصف جسده جامد والنصف الآخر حي، أي حتى جسده تشرب بفكره، فقد كان همه أن يلامس قارئه الموقنين في تناقضهما. وما يهمني نحن إبراز قدرته الجبارة على تدبير الحوار بين متقابلين وتلذذه بجداولهما مما يعطي لكتابه الحيوية والحياة اللتين جعلتا ما نقفاً تعود إليه.

نظرة متجددة للحيوان

للتفت الآن إلى كتاب الحيوان ولعله، وفق كيليطو، أهم كتب الجاحظ إذ نجد فيه نفس الطريقة التي لاحظها في كتاب الجاحظ، أي حواراً في إطار مناظرة بين فئتين متضادتين. والمفاجأة هذه المرة، يقول كيليطو، أن إحدى المناظرات تجمع مناصري الكلب مع مناصري الذئب في قرابة مئة صفحة.

ولوضع الأمر في سياقه التاريخي نذكر أن الجاحظ واكب نشوء عصر التنوير وتطوره ويتميز هذا العصر ببروز الترجمة كمرکز لاهتمام وبؤرة في التفكير، ومن مظاهر هذه الفترة ترجمة ابن المقفع لكليلا ودمنة وجهوده في نقل التراث الفارسي.

النثر هو المجال الذي

يوافق البخلاء ويعتبر

الجاحظ ممن طوروا فن

الرسالة ليصبح النوع

المهيمن في الأدب العربي

ومن مظاهر ذلك أيضا كتاب ألف ليلة وليلة وترجمة فلاسفة اليونان، وفي هذا الجو بالذات ينبغي قراءة المناظرة التي تتم بين مناصري الفلسفة ومناصري الشعر.

فكتاب البخلاء يتكون في قسم كبير منه من رسائل يتبادلها حزب السخاء والبخل، وكما أن موضوع الشعر أثير في البخلاء فهو أيضا موضوع مثار داخل كتاب الحيوان، ويستغرق العديد من الصفحات، والجدير بالملاحظة أن بداية الكتاب تبدأ بمدح الكتاب وتمجيد الكتابة، ترى من يتحفظ هذه المرة من الشعراء، إنهم مناصرو الفلاسفة الذين يتصون لمناصري الشعر.

ويختص عبدالفتاح كيليطو محاضراته بأن الفلاسفة بخلاف البخلاء لا يكون العداء للشعر وإنما يبرزون حدوده، والادق أنهم لا يخفون إعجابهم بالشعر العربي لكنهم يرون أنه يستحيل ترجمته وهو مقصور على العرب ومن تعلم لسان العرب.

ترجمتها "الهدية أو الهبة". ويمكن اعتبار "pottlatch"، وترجم أيضا بالتربع والتبرع المضاد، شيئا عاديا يحدث يوميا. فيمكن أن أهدك شيئا ربما ستفرح به إلا أن الأكد ساسحرك لأنك ستفكر تورا في إهدائي بدورك شيئا ما ويستحب أن يكون بزيادة، ولكن الأمر يكتسي صبغة درامية حين يبالغ فيه فيصير تحديا وينتظر إلى ما لا تحمد عقباه.

الشيء ونقيضه

يقول كيليطو في معرض حديثه عن أدب الجاحظ إنه شخصيا لا يعرف في الأدب العربي أو العالمي مؤلفا آخر منح للبخلاء فرصة الكلام قبل الجاحظ، فقد كان البخيل مجرد ضمير الغائب، فإذا به عند الجاحظ قد حل في ضمير المتكلم، بعين نقيضه ويدافع عن مذهبه بكل شراسة، ويقدم حججا يصعب تفنيدها، ولهذا عنوان فصلا في أحد كتبه "صورة البخيل بطلا"، ذلك أن البخيل بالنسبة إليه كمدب في الحياة وعقيدة في التفكير لمة يجب الحرص عليها مقابل لمة الأسخياء المنافسة.

وهؤلاء أيضا لهم فرصة التكلم بصيغة الأنا ولهم في صراعهم مع البخلاء منذ البداية امتياز لأنهم نعمون بتحيز إيجابي يحكم مسبق لصالحهم، فلا أحد يستنكر الكرم والسخاء ولا أحد سبق أن وافق على أن يُعتَبَر بالبخيل إلى أن برز فجأة بخلاء الجاحظ، فالصراع في كتاب الجاحظ محتدم بين فئتين تتجادلان بضراوة في حواراتهما وفي الرسائل التي تتبادلانها، فهما فئتان من الأدباء الأشداء على منافسهم، فألى أي فئة يميل الجاحظ؟ من الصعب معرفة ذلك.

يحلل كيليطو المسألة من خلال التأكيد على استنكار الجاحظ ظاهريا مذهب البخلاء ويسخر منهم أحيانا، لكنه يثيد ببلاغتهم وبفصاحتهم وبامتلاكهم قوة الكلام، بينما لا ينوه في هذا الشأن بالأسخياء وإن بدا بجانبهم، فتصرف البخلاء مذموم ولكن حديثهم محبوب، فكان البلاغة مقصورة عليهم، وكان الفصاحة مرادة للبخيل، كان ذلك ارتسامه في ذلك الوقت وهو طالب، وفيما بعد انضح له أكثر بأن كتاب البخلاء كتابان، أو أنه كتاب يشتمل على نقيضه.

إذا كان كل مؤلف يكتب مع أو ضد واحيانا

الانتقال المفاجئ من موضوع إلى آخر، من شعر إلى نثر، من موعظة إلى نادرة، من مثل إلى خطبة، من جد إلى هزل، فإذا كان من اللازم تشبيهه بكتاب أوروبي فلا أرى أفضل من الفرنسي مونتيني الذي كان يكتب بالفقر والوثب.

والظاهر إذن أن المسألة لا تتعلق بمن استقى كيليطو منه نهجه في الكتابة ولا حتى بعلاقة منهج بموضوع، والظاهر أنه من الضروري أن تفتح المسألة على ما تؤكد دراسات الأدب المقارن حيث تبين أن العلاقة بين الأدب والثقافات لا تختزل في العلاقة بين الموضوع والمنهج وأن الثقافة يتبع للدارس أن يتوضع بين ثقافتين ونهجين من منبعين وينظر في الاتجاهين، ونحن واجدون في كتب الندم الفكري دليلا على ما نذهب إليه.

ويرى كيليطو أنه كانت تقصه للتقدم في فهم الجاحظ كلمة واحدة، أصلها من لغة سكان أصليين في غرب الولايات المتحدة، وهي كلمة "pottlatch"، بوتلاتش،

في مادة لا تنتمي إلى الشعبة التي يدرس فيها، ووقع اختياره على الأدب المقارن في شعبة الأدب العربي، ولم يكن يخمن ما كان ينتظره من الصعاب.

يتابع كيليطو "درست 'مغني اللبيب' لابن هشام الذي اعتبره ابن خلدون أنحن من سيبويه، ولازلت إلى اليوم أذكره برهبة من يستطيع قراءته، وكان لا بد من التمكن من علم العروض، والفائدة الكبرى كانت في دراسة النقد القديم، حيث قرأت ابن قتيبة والأمدي وابن طباطبا والجرجاني، صاحب 'الوساطة' وصاحب 'أسرار البلاغة'، وابن شرف الفيرواني، فاكشفت حينئذ علما فكريا جديدا وقارة هائلة وثرية، ومنذ ذلك الوقت نشأ لدي اهتمام بالأدب العربي القديم، وتكونت لدي القناعة سواء كانت خطأ أم صوابا أن من لم يقرأ المؤلفين الذين ذكرتهم لا يعرف الشعر إلا بصفة سطحية".

وعلى هامش المقرر قرأ كيليطو بصفة عرضية كتاب البخلاء للجاحظ، وقال "كنت أتحيله يشتمل على نوابر تستهزئ بالأشياء وتحسف خستهم وندائهم، كما هو معروف وشائع، ما يميز هذا الصنف من النواير أن البخيل يتخذ عنه ولكنه لا يتكلم إطلاقا، ويا له من اكتشاف عندما تبين لي أن الجاحظ أعطاه الكلمة ووجهها له".

وهنا يرى المفكر المغربي عبدالسلام بنعبد العالي، في مداخلة على هامش المحاضرة، أنه عندما يعبر كيليطو عن الشعور الذي لم يفارقه قط أن بإمكانه أن يضيف شيئا للأدب العربي ببر ذلك بأنه ناجم عن اطلاعه على الأدب الفرنسي والأوروبي، وتلمس أن تلك السنوات من الكلام الأكاديمي لها أثرها مع ذلك، وأن هناك مفعولا للأدب الفرنسي وأن أثر ذلك الأدب على مدرسه لم يُح على الإطلاق.

قد يستفاد من ذلك لأول وهلة أن كيليطو لا يعترف هنا إلا بذيئه المنهجي لدراساته للأدب الفرنسي، ذلك الأدب الذي قد يكون مكنه من أن يكتب على الأدب العربي، فكان الاطلاع على الأدب الأوروبي طريق تمهد الدارس لدراسة الأدب العربي وتمدّه بالعدة المنهجية لذلك، بحيث يجيء إلى أدبه وقد رأى مناهج جديدة وظفت لدراسة آداب أخرى فيحاول تطبيقها.

وأضاف بنعبد العالي في مداخلة أن الجاحظ أسس بصورة جلية فن الاستطراد،

في تقديمه للمحاضرة التي القاها الكاتب عبدالفتاح كيليطو قال المغربي محمد الأشعري، الشاعر والروائي وزير الثقافة السابق، إن كتابات أبي عثمان الجاحظ أثارت قضايا شائكة، من ظهور المؤلف واختلافه وانبعائه وحول الإقامة المركبة بين الجد واللعب، كل ذلك يعتبر تجربة استثنائية في التراث المكتوب، ونظرا أيضا إلى كون الدراسات والقراءات التي قام بها كيليطو للجاحظ، على غرار ما قام به بخصوص كتاب آخرين كابي العماد المعري مثلا، بدورها تجربة عميقة ومدهشة في استعادة هذه النصوص ونسج خطوط حديثة للعلاقة مع كتابات ترجع إلى أزيد من عشرة قرون.

لقد كان الجاحظ كاتباً ساخراً ومتفكراً لكنه لم يكن سعيداً على الإطلاق، فقد كانت صناعة الكتاب في عصره تقوم على السروا والنسخ، وقد اضطر في مرات كثيرة إلى مقاومة العداء المحيط به بالتوازي خلف الراوية أو النسخ وتوقيع كتبه باسماء كتاب قدامى أو الادعاء للخلف من الشهور المحيطة به، كما نشر بعض مؤلفاته باسم مجهول، ثم يعترف بعد ذلك بأبائه اللقطاء، يقول الأشعري، وهذا التزييف الدائم والإحباط المرتبط به يجعلان الجاحظ كاتباً لا نعرف على وجه التدقيق إلى اليوم ما هي كتبه الحقيقية من المزيفة، ما هي الكتب التي نسبها إلى غيره وتلك التي نسبها آخرون إليه.

ومن الملاحظ أن ما وصلنا من كتب الجاحظ كان ربما الأوفر حظا في التداول بينما، يقول الأشعري، حيث أن أبنا عثمان كتب كثيرا من الجد، لكن طرافة البخلاء وأخبار الحقيقتين جعلتا نعتين أن الطابع الهزلي للكاتب أهم ما يميزه في عصر اتسم بجهامته الفقهية والسياسية، ودون شك فإن كيليطو بتحليلاته الدقيقة قد وضعنا أمام مظاهر أكثر تعقدا من هذا الانطباع السريع حول أدب الجاحظ.

الجاحظ والأدب الفرنسي

قال عبدالفتاح كيليطو إن "الجاحظ من المؤلفين العظام الذين يذهلوننا ويتحولون إلى علامة لا تحصى من مسارنا الفكري، وهذا لا يحدث كل يوم، فاعود إليهم باستمرار وأجد فهمي لهم يمرور الوقت، فقد كنت أعرف عناوين بعض كتبه: البيان والتبيين، الحيوان، البخلاء، لكن لم أكن أتصور وأنا طالب أنني سأقرأها في يوم من الأيام".

ويؤكد الكاتب المغربي أن الصدفه وحدها هي التي جعلته يهتم بما كتبه أبو عثمان الجاحظ، وكان ذلك في العام 1966 عند نيل شهادة في الأدب الفرنسي، وكان لا بد من أن يحضر الشهادة الرابعة

